

محمد عبده

الصبر على أداء الواجب درجة رفيعة من درجات الأخلاق الإنسانية .

وأرفع منها الصبر على أداء الواجب الذى لا يطلبه أحد منك ، ولا يحاسبك أحد عليه . وأرفع من هاتين الدرجتين صبر الإنسان على واجب يضار بأدائه ، وينتفع بتركه ، وقد يتركه فيغنم المحبة والثناء .

تلك درجة الأئمة من المصلحين .
وهى الدرجة التى استوى عليها مصلحنا الكبير : محمد عبده ، رضى الله عنه .

فما من واجب من الواجبات الكثيرة التى اضطلع بها فى الإصلاح الدينى أو إصلاح التعليم والأخلاق ، كان مطلوباً منه أو مفروضاً عليه .

وما من واجب من تلك الواجبات كان سهل المنال متيسر السبيل ، موفور الأعوان .

وما من واجب منها كانت فيه منفعة تعود على الرجل فى ماله ، أو سربه ، أو من يعول .

كلها كانت واجباته التي اختارها لنفسه ولم يفرضها أحد عليه .

وكلها كانت من الصعوبة والإعنت بحيث تتقاصر دونها الهمة وتحجم العقول .

وكلها كانت خلوا من الربح والشكر . ولو شاء الربح أو الشكر أو كليهما لاغترف من بحار ليس لها نفاذ .
رضى الله عنه . لقد كان في هذا الباب فرداً في المشارق كلها ، ليس له نظير .

ومن المصلحين من يسومون نفوسهم الصبر على الواجب في عالم الفكر والضمير ويعفونها من أعباء الواجبات التي تدخل في عداد الشئون الفردية ، أو الشئون الإقليمية وما إليها .

لكن محمداً عبده لم يكن ممن يعفون نفوسهم من واجب كبير أو صغير ، في عالم الشئون الفردية ، أو في عالم الفكر والضمير . بل كان غوثاً لكل مستغيث يصل إليه ، وعوناً على كل خير يطبقه ، وملاًداً لكل من يلوذ به من عارفيه وغير عارفيه .

وما شأن مفتي الديار المصرية بحريق في قرية ؟
وما شأن مفتي الديار المصرية بفقر حائر بين دور القضاء من أقصى الصعيد ؟

وما شأن مفتي الديار المصرية بأديب عربي مغترب من بلاده حيث لا يوجد الأدب بالكفاف على غريب أو قريب ؟

لكن محمدًا عبده له شأن بجميع هؤلاء ، وعند ظنهم جميعًا ،
وفوق ما يظنون ويرتجون . فلا يعرف النوم وبين يديه . حاجة
ضعيف أو مظلوم ، ولا يبخل بوقته ولا بجاهه ولا بماله
ولا بشيء في مستطاعه لإحقاق حق وإدحاض باطل .

رضى الله عنه : ما سمعت قط بنظير له في هذا الباب .
ونحن اليوم نتكلم عن الواجبات والمروءات واحتمال
المسئوليات ، ونبدئ فيها ونعيد حتى أصبح اعتقادها على الأقل
شيئا من المؤلفات التي لا تقع من الأسماع موقع الاستغراب .
إلا أننا خلقاء أن نرجع إلى زمان محمد عبده لنعرف له
فضله . وأن ننسى أيامنا هذه ولا نذكر إلا أيامه هو ، لكي
نحسن الوزن والقياس .

ففى أيامه كانت كلمة « أنا مالى » شعار كل مصرى فى كل
طبقة من طبقات الأمة .

وكان المرء يوشك أن يسأل عن الحسنة فينكرها ، مخافة أن
يكون وراء السؤال حساب أو عقاب .

فى تلك الأيام كان الهرب من الواجب عنوان الحكمة
والحصافة .

وفى تلك الأيام كان محمد عبده يتصدى للواجب الذى
لا يسأله عنه أحد . ولا يحاسبه عليه أحد ، ولا يجهل ما وراء
تصديه له من بلاء وعناء .

وأعجب ما انطبع عليه الرجل من هذه السجية النبيلة أنه كان يقبل التبعة التي لا يد له فيها ، ترفعاً منه عن موقف النصول والنكول ، فكان يشتد في تخطيطه العرايين قبل إدبار دولتهم ، ثم أمسك عن نقدهم يوم أدبرت بهم الدولة وبطلت الفائدة من نقدهم وأصبحت فائدة النقد كلها للناقلين .

* * *

هذه الغيرة على الناس ، وهذا الوحيد الواصب في سبيل الناس ، وهذا البر الدائم بكل إنسان من الناس ، لم يكن عن جهل ولا غفلة عن خبائث النفس البشرية وما ركب في بعض الطبائع من اللؤم والخسة والكنود .

فقد ابتلى الرجل من هذا الجانب بالشيء الكثير : عوجل به في باكر شبابه ولزمه طوال حياته إلى فراش موته .

ففى الشباب تعلم بعض ما أصابه من الغدر والكنود من رسالته التي يقول فيها : « تقطع الأمل ، وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالأولياء ، وضل الاعتقاد بالأصفياء ، وبطل القول بإجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء ، وحقت على أهل الأرض لعنة الله والملائكة والأنبياء » . إلى آخر ما فى الرسالة من شكاة وتبرم أليم .

أما فى عهد الكهولة ومقتبل الشأن فما رأينا رجلاً اتفق الوشاة على الكيد له كما اتفقوا على الكيد لهذا الرجل العظيم .

إما لحسدهم إياه ، أو لجهلهم به ، أو لأنهم يؤجرون على الإساءة
ويثابون ، وكان هو رحمه الله يعلم ذلك ويستيقنه صباح مساء ،
فلا يكثر له إلا بمقدار ما يعوقه عن سبيله ، ولا يزيده
إلا مضياً فيما مضى فيه .

فالغيرة على الناس إنما كان مصدرها ينبوع العظمة من ذلك
الخلق الكريم ، ولم يكن مصدرها شيئاً يتلقاه من الناس أو جزاء
ينتظره منهم ، أو انخداعاً في حقيقة ما جبلوا عليه .
وتلك سجية المصلحين .

إننا نتكلم عن سوء الجزاء الذى يلقاه المصلحون من أهل
زمانهم ، ويجب أن نذكر أن المصلحين هم فى الحقيقة أقل العظماء
نصيياً من حسن الجزاء فى الحياة وبعد الممات .

فإنهم ينجحون فى دعوتهم فيكون نجاحهم أدعى إلى نسيان
فضلهم والإغضاء عن سابق جهودهم وضحاياهم ، وعن
العراقيل التى قامت قبل ذلك فى طريقهم .

فأبناء الأجيال ينشئون وهم يحسبون أن الحالة التى نشأوا
عليها إنما هى الشئ المألوف المعهود الذى لا يحتاج إلى عمل
ولا مجهود .

فنحن الآن لا نسأل كما كانوا يسألون قبل خمسين سنة : هل
تجوز إضاءة المساجد بالكهرباء أو لا تجوز .

ولا نسأل كما كانوا يسألون : هل يؤكل الطعام الذى يؤتى به من أوربة أو هو حرام على الآكلين .

ولا نسأل كما كانوا يسألون : هل يحل للرجل المسلم أن يرسل بابنه إلى مدرسة يتعلم فيها أن الأرض كرة وأن هذه الكرة تدور ؟

ولا نسأل كما كانوا يسألون : هل فى كبريت العلب مادة تنقض الوضوء ؟ وهل للحرير المصنوع حكم غير حكم الحرير المطبوع ؟ وهل وهل وهل إلى أشباه هذه الأسئلة التى كانت تتوالى على الإفتاء وتدل على الحالة العقلية التى كان الناس يواجهون بها مشاكل الحياة العصرية ، وهى حالة فى الحقيقة أخطر وأعزل من الأسئلة وموضوعاتها ، لأنها حالة أناس معزولين عن الحياة .

نحن لا نسأل هذه الأسئلة الآن .

ولكنهم كانوا يسألونها ويفكرون على نهجها قبل خمسين سنة ، وجهود محمد عبده فى فتاواه وأعماله ودروسه وقدوته هى الجهود الأولى التى بذلت بذل السخاء لتبديل تلك الحال وتعويد العقول أن تفكر على مثال غير ذلك المثال .

فإذا قيست عظمة محمد عبده غداً فلا تكفى فى قياسها مؤلفاته وآثاره الكتابية ولا ينصفه المؤرخ حق إنصافه قبل استيفاء هذا الجانب من إصلاحه وجهاده .

ولهذا قلنا إن المصلحين قليلو الحظ من الإنصاف ، لأنك تعرف المؤلف بقراءة كتابه ، وتعرف القائد باسم المدائن التي فتحها والوقائع التي انتصر فيها ، وتعرف المخترع بذكر اختراعه ، والخطيب بحفظ كلمات من عيون خطبه أما المصلح فلا تعرفه إلا إذا عرفت جهاده ، ولا تعرف جهاده إلا إذا عرفت عصره في جميع أجزائه ، وعرفت كيف كان وكيف تحول وكيف سرت روح التحول فيه ، ودون ذلك بحث وتنقيب ، وموازنة وتقليب ، وصبر يتقيه القارئ المطلع ويتقيه الباحث الأديب .

يسأل النقاد أحياناً : أين مكان الأستاذ الإمام بين زميليه العظمين اللذين يذكران معه كلما ذكر ، وهما جمال الدين وسعد زغلول .

والرأى عندنا أن صفة المصلح العظيم تضع الأستاذ الإمام في موضعه الصحيح بين زميليه ، وأحدهما أستاذه والثاني إمام مريديه .

فهؤلاء الأعلام الثلاثة على اتفاقهم في بعض الخصال - يختلفون في أساس الاستعداد .

فجمال الدين هو الداعي العظيم .

وسعد زغلول هو الزعيم العظيم .

ومحمد عبده هو المصلح العظيم .
ولكل مهمة من هذه المهام الكبرى كفاءتها الخاصة التي
لا تغنى فيها كفاءة غيرها .

فالدعوة صيحة وحركة وعمل سريع وتوهج وقدرة على التنبيه
وقرع الأسماع ولفت الأنظار ، وهى لذلك أشبه بجمال الدين .
والزعامة قيادة وتوجيه وقدرة على تبادل الصلة بين الزعيم
والشعب وعلى توجيه الشعب فى خدمة قضية أو إنشاء نظام من
نظم الحكومة ، وهى لذلك أشبه بسعد زغلول .

والإصلاح ثقة وجلد ومزيج من روح الوعظ وروح التعليم ،
وإعراض عن الشئون الدنيوية ، وإنكار للذات فى هذه الشئون ،
وهو - أى الإصلاح - أشبه من أجل ذلك بالأستاذ الإمام .
وعلى توارد هذه الأساء معاً يصعب عليك جداً أن تتخيل
جمال الدين على رأس حكومة أو حركة شعبية كسعد زغلول .
وأن تتخيل محمداً عبده جواباً للآفاق مفتحة للأبواب تارة
على الشاه وتارة على القيصر وتارة على الخاقان الأعظم ، وتارة
فى العواصم من إيران إلى الهند ، ومن الهند إلى مصر ، ومن مصر
إلى كل مكان يحمله إليه الركاب .

كذلك يصعب عليك جداً أن تتخيل سعداً فى دار الإفتاء أو فى
معهد التعليم صبوراً على الإقناع والإفهام معرضاً عن النزاع
والخصام .

فبينهم من الاختلاف في الاستعداد ما نرى من الفارق
البعيد ، ولكنهم قد اتفقوا في خدمة الشرق بجميع ما رزقوا من
ملكات متقاربات أو متباعدات .

وأن الشرق بخير مادام قميناً بإنجاب هؤلاء الأبناء ، عارفاً
بما قدموا من مآثر وآلاء ، مقيماً لهم على الوفاء وصدق الثناء ،
وحسن الجزاء .